كتب

باي باي «تنوير»

بيار أبي صعب

في الماضي القريب، كانت أولويّة السلطة في مصر هي استيعاب المثقفين، لتأمن «شرّهم» وتتّقي نقدهم ومعارضتهم. والمثقفون في بلد النهضة العربيّة البعيدة، لم يكونوا يومذاك حالة هامشيّة، بل طالما شكّلوا نقطة ثقل أساسيّة في تحديد ضمير المجتمع ووعي الجماعة. هكذا تمّت عمليّات الاحتواء والتدجين والتحييد خلال العقود الماضية، ومن وسائلها صياغة خطاب تقدّمي رسمي، تطلّ به السلطة لغواية أهل الفكر والإبداع. أما كلمة السرّ في هذا الخطاب، فكانت «التنوير». لم نشارك في تظاهرة ثقافيّة في القاهرة، خلال الثمانينيات والتسعينيات، إلا وطالعتنا رايات التنوير، وحاصرتنا صور طه حسين، وتوفيق الحكيم والآخرين. صحيح أن نصر حامد أبو زيد طرد من الجامعة، وطلّق من رفيقة دربه وهرب من مصر، لكن ما همّ! كنا ننتشي لأدبيات التنوير وشعاراته وكتبه ودراساته ومؤلفاته. وكان اسم علي عبد الرازق على كلّ مسرح ولسان. كان الخيار إما أن يكون المرء مع «التنوير» (أي مع السلطة سنده الأخير)، أو مع «الظلاميّة والإرهاب» (أي مع الجموع المقهورة سياسياً واجتماعياً وقوميّاً التي وجدت ملاذها في التفسيرات المشنّجة للخطاب الديني).

ثم تفاقم الانهيار، وتفشّى الفساد والاستبداد وخدمة مصالح المستعمر حتى حراسة معبر رفح لصالح إسرائيل... ولم يعد هناك ـ باستثناء دائرة ضيّقة من الشجعان، الذين يختزنون روح مصر وضميرها ـ من يرفع صوته اعتراضاً! لقد انهار المثقفون ودُجّنوا، أو زجّوا في دوائر الضعف والعجز واليأس. لم يعد هناك ما يجعل السلطة تخشى جانبهم. صار من الممكن التنازل لـ«الظلاميّة» عن شعار التنوير الذي مرّ عليه الزمن، والتضحية بطه حسين... أو حذفه من المستقبل.

ألسنيات

قصة الكلام كأنّها حدوتة ساندريلا

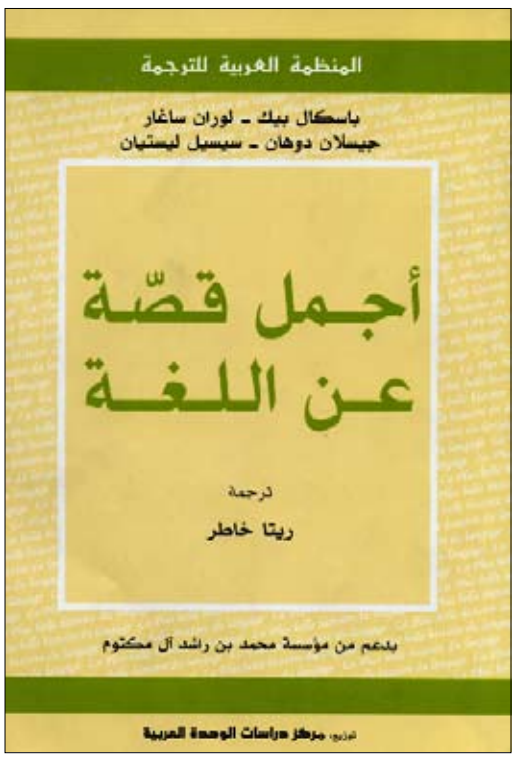

الصحافية الفرنسيّة سيسيل ليستيان خاضت في مسألة نشوء اللغة، من خلال حوار ثلاثي مع الأنثروبولوجي باسكال بيك، والألسني لوران ساغار، والطبيبة جيسلان دوهان. النتيجة كتاب مهمّ نقلته ريتا خاطر إلى العربيّة أخيراً

نوال العلي

يستطيع الصمّ والبكم رواية الحكايات. المهمّ أن يجيد الآخرون الاستماع. لغات الإشارة لغات حقيقية. وربما ليس من المبالغة القول إنه وفي البدء كانت الإشارة، لا الكلمة. أم أن لغة كونيّة واحدة كانت موجودة في ما مضى ثم تنوّعت وتفرعت حتى وصل أحد تنويعاتها إلى شكسبير مثلاً؟

المؤمنون يرون أن الإنسان خُلق على صورة الله، لأنّه يقدر على الكلام وتسمية أشياء العالم. وفي التسمية إعطاء وجود مثبت بالكلام على حقيقة الأشياء. بعضهم يقول أن تكون قادراً على القول، «يعني أن تكون قادراً على الخلق. هذا أمر مذهل» يبين الباحث باسكال بيك. ومن يتتبع «أجمل قصّة عن اللغة» (المنظمة العربي للترجمة ـ تعريب ريتا خاطر)، سيردّد العبارة نفسها خلف بيك: حقاً، إنه لأمر مذهل. تقرأ قصة الكلام كأنّها حدوتة ساندريلا. كل ما هنالك أن الحذاء هو اللغة هذه المرّة. وكما يقال: هناك دائماً حذاء على مقاسك.

وبالعودة إلى لغة الإشارة. نتوقف عند الممثلة الصمّاء إيمانويل لابوريت. إذ تروي حكاية عن علاقتها باللغة أو عن علاقتها بالوقت. وعلى نحو أكثر دقّة عن علاقة اللغة بالوقت. قبل أن تتعلم لغة الإشارة، لم تكن إيمانويل تدرك مفهوم الوقت ومعنى الماقبل والمابعد. إذاً، فلا غنى عن اللغة للتعرّف إلى حقيقة المفاهيم ومعناها لا للتفكير والتعبير فقط. وكم من شكل يمكن أن تتخذ اللغة... يمكنها أن تكون موسيقى أو رياضيات! أينشتاين مثلاً ظلّ يؤكد دائماً أن ليس للكلام دور في تأمّلاته، بل كان يشعر بلغة داخلية يجد صعوبة بالغة في التعبير عنها بالكلمات.

الأنثروبولوجي باسكال بيك، والألسني لوران ساغار، والطبيبة جيسلان دوهان هم أيضاً ثلاثة باحثين في اللغة تلتقيهم الصحافية الفرنسيّة سيسيل ليستيان ليسرد كل منهم فصلاً من رواية «أجمل قصّة عن اللغة». وها هي ريتا خاطر التي ترجمت أيضاً كتاب «المُضمر»، تنزل إلى النهر نفسه مرتين، لكن ما يستهويها الآن ليس علم الدلالات وإنما نشوء اللغة. يأخذ الكتاب شكل حوار يدور بين الصحافية والباحثين في حلقات متفرقة وضعتها ليستيان في ثلاثة أجزاء تدور حول مصادر اللغة، وأسطورة اللغات، والكلام الجديد.

لكن قبل الولادة الجديدة للكلام، هناك مسألة تثير الجدل في أوساط الألسنيّين وقد مثّلت لفترة طويلة أمراً يُحظر الخوض فيه. هل كانت هناك لغة أمّ؟ كانت جمعية الألسنيّة الباريسية قد منعت سنة 1866 تداول أيّ نقاش حول نشأة اللغة لتعذر الإجابة عن السؤال. ورغم أن البحث في هذا الشأن صار متاحاً الآن، لم تتمكن علوم الأحافير ـ رغم تطورها ـ من بتّ الأمر، رغم ترجيح المهد الأفريقي، كما تبيّن الأحافير، منشأ للغة الأم.

وإذا كان العلماء قد أصابهم العجز أمام نشوء اللغة، فقد حاول السلف

> هل تعود البشرية يوماً إلى اللغة الواحدة؟

أيضاً البحث في وجود اللغة الآدمية. يروى مثلاً أنّ الفرعون بساميتيك الأول (664 ـ ت 610 ق. م.) أراد أن يثبت أن أقدم لغة بشريّة هي المصريّة، فعهد بطفلين إلى راع ليربّيهما، وأخذ عليه عهداً ألّا يلفظ أمامهما كلمة، بل يتركهما للجوع حتى يعرف بأيّ لغة سينطق الصغيران. لكنهما لم يتلفّظا بأيّ كلمة مصرية طبعاً، وربما يكون مصيرهما مثل مصير أطفال الإمبراطور فريدريك الثاني، الذي طبق التجربة نفسها حتى لقي الأطفال مصرعهم.

أمّا أسطورة هنود المايا كيشي، فتقول إنّه بعدما خلقت الآلهة البشر، شعرت بالخوف من قوة المخلوقات التي أوجدتها، فرأت أن تثير الفوضى على الأرض وتفرّق البشر، وكانت حيلتها أن جعلت لكل جماعة لغة مختلفة. وعلى مدى عصور عدة، أجمع الغرب على مسلّمة وجود لغة أمّ. وكان السؤال يدور حول معرفة هذه اللغة التي كان يتكلّمها آدم وأبناؤه حتى وقوع كارثة بابل، حين أنزل الله عقابه على البشر جزاء كبريائهم، فمنعهم من الاتحاد، وفرّق بينهم بمضاعفة لغاتهم.

المفارقة في الأمر أن بعض الألسنيّين يتوقع أنّ يعود البشر ـ في مستقبل بعيد ـ إلى الحديث بلغة كونية واحدة. والطريف أنهم يتكهّنون بأنّها واحدة من لغتين: الإنكليزية أو الصينية. ولا يستبعد هؤلاء أن تتكلم البشرية مرة أخرى لغة واحدة، وأن تزول الكثير من اللغات التي تهدّدها على ما يبدو قصة موت معلن، ولا سيما مع زيادة وزن المحكيّة على نطاق كبير. وبحسب الألسني لوران ساغار، لن تنجو من الهلاك سوى اللغات التي تحميها دولة معينة ومهيمنة، مثل ما يحدث في الصين مثلاً من تطبيق صارم لنظام لغة واحدة هي المندرينيّة، على حساب لغات الأقليات الأخرى. وكذلك الحال في فرنسا، التي طبّقت منذ الثورة الفرنسية أنظمة تعوق البريتانية والباسكية والبروفنسية والبيكاردية من البقاء. وفي الحقيقة إن بعض اللغات بدأت فعلاً في التلاشي مثل اللغة الهاواية والغالية والماوريّة.

انقراض اللغات يفتح الباب على مصراعيه للحديث عن علاقة اللغة بالفكر من جهة، واللغة والهوية واللغة والعرق من جهة أخرى. وهل من شأن التكلم بلغة واحدة أن يجعل متكلمي هذه اللغة يفكرون بطريقة خاصة؟ وهل يعجز متكلمو اللغات المؤسسة بطريقة مختلفة عن تصوّر العالم بالطريقة نفسها؟ لوران ساغار يوضح أننا جميعاً نملك الدماغ نفسه، بمعزل عن التجارب الشخصيّة. أمّا اللغات، فتسلك الدروب نفسها.

سيرة

هاشم شفيق شاعر الزمن الحاضر

خليل صويلح

لعلها أول سيرة ذاتية عربية تُكتب شعراً. إذ شاء الشاعر العراقي هاشم شفيق أن يستعيد حياته «إيقاعياً»، كما لو كانت أغنية شجن عراقية محملّة بالأسى والحنين. سيرة تجوس تضاريس الطفولة والصبا والشباب في رحلة منافي لم تتوقف إلى اليوم. «البحث عن الزمن الحاضر» (دار كنعان ـ دمشق) بهذا المعنى هو القبض على لحظة هاربة، تشع في ذاكرة استعادية متوقدة عن ذلك الطفل الحافي الذي كان يجمع المسرّات في البراري، ويتلمّس ألوان الحجارة والنباتات، قبل أن تقذفه الريح «إلى حجر دائر في كل اتجاه». في سيرة الصبا، سيُصفع الفتى بأصوات التظاهرات وسقوط الملكية في العراق ليخرج من «النشيد الملكي إلى نشيد العامة» والنوم في الفنادق الرخيصة، ومغازلة النساء في شارع النهر. هكذا، تتكشف صورة بغداد مطلع السبعينيات عن صعاليك بسراويل الـ«شارلستون» وصور غيفارا، يجوبون الشوارع والحانات، وهم يتأبطون «سارتر، وكامو، والمتنبي، والسيّاب».

من بغداد إلى باريس، سينفتح المشهد على متشرّد فوق أرصفة «سان ميشال» وشاعر جوّال يقتفي أثر رامبو في الحانات، يدخّن زهرة الخشخاش «كي أسرح في اللاجدوى». سيعمل كنّاساً في مطبعة «ومصحح مخطوطات، وغسّال صحون» إلى أن يكتشف «اللذة منشورة فوق الحبال» وعلى جدران المتاحف.

في مطلع الثمانينيات، سيحط صاحب «أقمار منزلية» في بيروت، ليباغت بحرب دائرة بين المتاريس، فيلجأ إلى «الفاكهاني» ويدخل متاهة الحرب العبثية «رأينا ابن آوى يلقي خطبة في الميادين والثكنات/ رأينا ما لا يُرى». صورة بيروت في سيرة هاشم شفيق مغبّشة بالأحلام المكسورة وأزيز رصاص القنّاصة، ووجوه من ماتوا في الحرب، وامرأة نحيلة من البنفسج، وسفينة تمضي «ذات فجر حزين ومحاصر صوب مدائن أخرى». هكذا، سيحط الرحال في دمشق ويطيل المكوث لتصير الشام «مرشدي وشفيعي، حين يدهمني الضياع». كأن دمشق تجلو صدأ مدن أخرى، وتشفي الغريب من ندوبه «هناك مسّني شبق دمشقيّ، فأطال مكوثي داخل الهناء». ومثل مدن أخرى ستكون الحانات مهبط أقدام الشاعر، لتتبخر الكلمات فوق موائد السكارى، وتهبّ روائح العطارين في الشوارع والأسواق القديمة، وإذا بمقام الشيخ محيي الدين بن عربي هو الملاذ في الهجير. قبرص محطة الشاعر الأخيرة في سيرته. جزيرة هوميروس وسقراط وبينلوب وبحّارة، وتشرّد في منفى نحصي فيه الخسائر والعقبات التي تعيق الأنفاس.

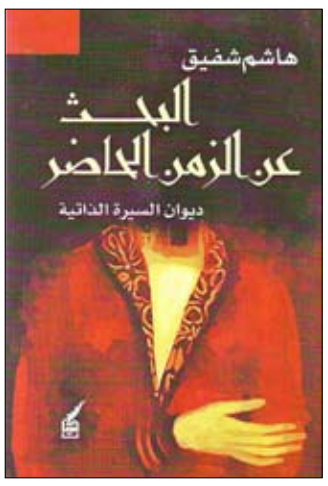

> سيرة ذاتية كتبت شعراً كأغنية شجن عراقية

لا ندري أسباب هاشم شفيق في كتابة سيرته شعراً، لكننا سنفتقد وقائع سردية غائبة، وتفاصيل لا شك في أن وجودها سيملأ الفراغات. كأن هذا الشاعر العراقي الأليف لا يرغب بهتك اللغة بخشونة ليست من طبائعه، على رغم دأبه في ترميم المشهد بالإيقاع، والكثافة البلاغية، واسترداد زمن منهوب بالمنافي والتسكع والألم. من مقلب آخر، يمكن اعتبار هذه السيرة معجماً للروائح والنباتات والأحجار. إذ تحتشد فصولها بأسماء لا تحصى لموجودات الطبيعة وأنواع الخمور وأسماء المقاهي والحانات. الحانة هي بيت ومأوى ومصير للعراقي. هذا الولع بالمسميات الغريبة نجده بوفرة في نصوص صاحب «وردة الحنّاء» كأنه عطار بغدادي قديم لم يغادر دكانه الأول.